إشكالية الهوية الثقافية ومسارها التاريخي: بين الكبح والإثبات

أ. د. بونوة سلاك،
شريفة بريجة،
جامعة وهران **2**

ملخص : نرمي من خلال هذه المساهمة، إلى إسقاط الضوء على المصير التاريخي الذي عرفته الهوية الثقافية خلال القرنين **18**م و**19**م بأوروبا خاصة، فبعدما كانت مُلتبسة خلال فترة زمنية طويلة، أصبحت الآن تَتصدر فضاء المطالب كحق قائم سواء من المنظور السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي، وصارت بارزة في المجالات السوسيو ثقافية والسياسية عبر دول العالم بصفتها مطلب مشروع، كما أضحت تُثير نقاشات وأبحاث علمية بالجامعات بعدما كانت بصف عامة (الجماعية والقومية والفردية...) مكبوتة طيلة القرنين السالفين بأوروبا، أما بالوقت الراهن، أصبحت الهوية تحظى باهتمام منظمات دولية خاصة منها منظمة اليونسكو والجمعية العامة للأمم المتحدة.

RESUME : Dans cette contribution, nous tenterons de donner quelques éclairages utiles à la compréhension des différentes étapes qu'a connu l'identité culturelle durant les deux derniers siècles, tant du point de vue politique que culturelle que social, avant d'être reconnue comme revendication légitime. Après avoir connu deux siècles de répression, elle devient le problème de l'heure, mis en valeur par des organismes internationaux : l'Unesco et l'Onu.

مقدمة:

شَيّدت المجتمعات الإنسانية صرح تراثها الثقافي عبر مراحل تاريخية متواصلة وطيلة فترات من الزمن، عبر نواحي مختلفة من المعمورة، وبهذا تَشكل لديها رصيدًا مليئاً بالعادات والتقاليد والمعتقدات واللغات والمعارف والممارسات والسلوكيات، التي هي بمثابة المُكونات القاعدية لهويتها الثقافية، وهذه الأخيرة تَجعل المجتمعات تتميز عن بعضها البعض، لكنها أي الهوية الثقافية، قبل أن تصل إلى ما هي عليه الآن عرفت حسب الظروف السياسية والاجتماعية التي مرت بها، تغيرات وتقلبات في مسيرتها وبالأخص الأوضاع السائدة في أوروبا التي فُرضت عليها خلال

القرنين السالفين، أَيْن عَرفت المُكتسبات الثقافية للكثير من الجاليات تارة طمس وتارة تشويه (كما سنراه) أما بعد الحرب العالمية الثانية، نظرا للمعطيات الجيو سياسية الحديثة، أصبحت تحظى بالاهتمام والرجوع إليها كعنصر أساسي لِبَلوَرت البنية الثقافية لأي مجتمع وحقه في إحياء تراثه الثقافي.

مصير الثقافات عبر التقلبات التاريخية خلال القرنين 18م و 19م:

من الضروري أن نرجع عبر التاريخ للأوضاع السياسية، والثقافية خاصة، لفهم أبعاد الهوية الثقافية التي أصبحت اليوم مشكل الساعة الى درجة أنها اكتسحت الميادين السياسية والدينية والاجتماعية ومست العديد من الدول، بما فيها الدول الأوروبية التي كانت بالأمس، تقمع الفروق الجهوية ولا تسمح باستعمال اللهجات المحلية المتواجدة في أقاليم عديدة من أوطانها .

تاريخيا، إن مشكل ما يسمى ب"الخاصيات الجهوية أو الاقليمية" les spécificités régionales يُقصد بها الثقافات المختلفة المتواجدة في بعض الأقاليم التابعة لإمبراطورية ما، وترجع إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأوروبا، حيث بدأت تبرز إشكالية "إيقاظ الوطنيات" (le réveil des nationalités) التي قامت ضد الإمبراطوريات الكبرى المُهَيمنة آنذاك على القارة الأوروبية، نذكر من بينها الإمبراطوريات التي كانت تحتل مناطق بأوروبا وجهات كثيرة من أنحاء العالم : النمساوية والعثمانية، والفرنسية والروسية، والبريطانية، والإسبانية والبرتغالية.

ففي سنة**1815**م انعقد مؤتمر "فِيَنّا"(congres de Vienne) بعد انهزام الإمبراطورية الفرنسية (**نابليون 1**) والذي رَمِيَ الى النظر في مصير المناطق التي احتلها **نابليون** بأوروبا قصد توزيعها بين المنتصرين عليه ؛وقد تم تقسيمها بينهم بصفة سلطوية، وحسب أغراض سياسية.

وخلال الفترات التاريخية بعد هذا التقسيم، وحسب الظروف السياسية وتقلبات الأوضاع والصراعات التي نشبت في بعض الأحيان بينهم، وداخل إحدى الإمبراطوريات في أحيان أخرى، بدأت تقوم حركات تمرد في العديدة من المناطق ضد السلطات التي ضمتها، تُطالب بالتخلص من الهيمنة عليها، وغالبا ما كانت تُحَرَضْ هذه الحركات من

طرف واحدة من تلك الإمبراطوريات ضد الأخرى، ساعية من وراء ذلك الى إضعاف خصمها بسبب الخلافات والنزاعات الناشبة بين الإمبراطوريات. والأمثلة كثيرة:

- كانت إيطاليا، خلال هذه الفترة، مُجزّأة وتحت هيمنت الإمبراطورية النمساوية وقاما "كافور" و"غاريبالدى" (Cavour و Garibaldi) بالنضال قصد توحيدها الى أن حققا "الوحدة الايطالية" (unité italienne) وأصبحت قائمة كدولة مستقلة (مملكة **1860**م) وآزرتهما في ذلك **فرنسا** ضد **النمسا**، في عهد **نابليون الثالث** الذي كان مؤيدا لتحرير وتوحيد **إيطاليا**، وهكذا تمكنت **فرنسا** من ضم منطقتين إليها من ايطاليا: **نيس** و**الصَّافْوا1860**م Duché de Savoie, comté de (Nice).

- أما ألمانيا أي المملكة البْروسية سابقا، قامت بفضل جهود الملك "قييوم **1**" (Guillaume1) والوزير"بيسمارك" (Bismark) وبعد عدة حروب ضد **النمسا**، ضمت إليها مناطق مجاورة وبهذا كَونتْ وطنها الموحد الذي سيُكوّن الكونفدرالية الجرمانية إلى غاية **1934**م، مع العلم بأنه خلال هذا الوضع كانت هذه المناطق تمتاز بوحدة لغوية وثقافية.

- أو روسيا التي ضمت مناطق متفرقة (فنلندا، و أوكرانيا، وبولونيا. . .) بالإضافة إلى قيام حروب بمناطق "البلقان" وبأوروبا الشرقية، بمآزره من فرنسا ومن روسيا، لصالح الشعوب التي كانت تحت هيمنة الإمبراطورية العثمانية ، قصد قِيامها كدول وطنية (مثلا اليونان **1830**م. . .)

فبدأت تُرسم خريطة جديدة لأوروبا حيث برزت للوجود دول لها وحدة إثنية أو ثقافية مثل ألمانيا أو إيطاليا ودول أخرى تتكون من عدة إثنيات (Ethnies) وثقافات مختلفة، ولكنها أصبحت تُكَوِن كيان سياسي (الدولة- وطن).

التعريف بمفهومة "الدولة- وطن" Etat-nation

1) تعريف "ماكس فيبر" (Max Weber) :

يعتبر "ماكس فيبر" الدولة بأنها: "تلك المجموعة المنظمة" داخل المجتمع والتي يُخَول لها استعمال "العنف المشروع"، فحسبه كل نزاع يقوم

داخل المجتمع، فإذا قامت جماعات أو أفراد باستعمال العنف لتسويته لا يسمح لها، فهي غير شرعية، لأن العنف المشروع يُمارس من طرف "السلطة السياسية المركزية" التي هي الوحيدة التي تكتسب "القوة المنظمة" للمحافظة على النظام وهذه المجموعة تسمى "الدولة" (Gellner,E. 1989 ; 17).

2) التعريف ب "الدولة- وطن" من طرف l'UNESCO

أعطت اليونسكو، من جهتها، التعريف التالي لمفهوم "الدولة-وطن":

" نسمي "**الدولة- وطن**" كل دولة تتطابق مع الأمة، وتقطن في منطقة محدودة، والتي تُوصف حسب هوية مشتركة بين السكان، وهذا ما يعطيها (أي الدولة) مشروعيتها. فالعبارة تدل على مفهوم سياسي مبني على معنى سياسي وقانوني (الدولة) ومعنى هوياتي (أمة). تتميز الدولة بالسلطة المبنية على السيادة المنبثقة من المواطنين الذين يكونون مجموعتها السياسية والثقافية (أو الإثنية) "

وتُضيف موضحة: " أن "الدولة- وطن" تعتبر ميدانا تتمازج فيه الحدود الثقافية مع الحدود السياسية. فالغاية التي ترمي اليها "الدولة-وطن" تتمثل في إدماج الأفراد ضمن صرح إثني وثقافي، لكن (نلاحظ) إن جُل الدول متعددة الإثنيات. لهذا ف"الدولة- وطن" يكون لها وجود في حالة ما إذا كان كل أفراد الأمة ينتمون إلى دولة وحيدة، بدون أن توجد فيها عدة جاليات وطنية. بالرغم من أن هذه العبارة كثيرا ما تستعمل، فقليلا ما يوجد كيان مثل هذا. "

إن "الدولة- وطن" كما نتصورها الآن هي في حقيقتها من إنتاج القرن التاسع عشر، فمنذ ذلك العهد، تعتبر الأمة بصفتها المُجَمّع السياسي الذي يضمن مشروعية الدولة على منطقتها وبهذا تصبح الدولة تعتبر دولة جميع المواطنين. ويُلاحظ بأن "الدولة- وطن" تحرس كل الحرس على هذا التحالف بين أي أمة ودولتها لهذا تعتبر **الجنسية** هي العامل الذي بفضله يتم الارتباط بين الدولة والمواطن، والذي يمكنه الاستفادة من العناية السياسية والاجتماعية للدولة، بصفتها "الدولة ذات عناية" (l'Etat providence).

وقد تم التعريف بهذا الكيان السياسي بفضل ارتباط الكلمتين "دولة- وطن" وأصبحت أي نزعة أو حركة سياسية تنتمي اليها تتشبث

بمبادئها الوطنية (nationalisme) والأفراد أي المواطنون يُلقبون بالوطنيين (nationalistes) مما يستوجب اليقظة في فهم المصطلحات الخاصة بتلك الفترة : فتدل عبارة réveil des nationalités على "إيقاظ الوطنيات" وليس إيقاظ الجنسيات، لأن لفظ - الجنسية- يُقصَد به الانتماء الى دولة لها وحدة سياسية، مهما كانت تركيبتها الإثنية والثقافية(كما أشار اليه تعريف اليونسكو).

وخلال القرن التاسع عشر (**19**م)وفي أوائل القرن العشرين (**20**م) وقعت تقلبات سياسية وحروب وتحالفات قصد رسم خريطة الدول الأوروبية الحالية وتدعيم بنية "الدولة- وطن" من حيث قيام الدول ككيانات وطنية على شكل دول لها تنظيم مركزي (جمهورية أو مملكة) ولها تشريعاتها، ورُسمت لها حدودها، وخاصة فرضت لغتها الرسمية الوحيدة - والتي غالبا ما كانت لغة الجالية المُهيمنة- وبهذا عبارة "إيقاظ الوطنيات" اكتست معناها الكامل لدى الدولة- وطن... وفي هذا السياق أصبحت **ألمانيا** متكونة من مناطق متشابهة في الكثير من المكتسبات (لغة، عرق، ثقافة، دين، ماضي) وكذلك **إيطاليا** التي رغم تعدد المملكات الصغيرة بها فهي تنتمي إلى ماضي حضاري شهير، وبهذا كونت " الوحدة الإيطالية ".

كان هذا الطرح من منظور الأوضاع السياسية، أما في ما يتعلق بالفضاء السوسيو ثقافي، قد قامت هذه الدول الجديدة بصفتها كيان موحد، بالرغم من أنها متكونة من عدة مناطق انتزعت من الإمبراطورية المهيمنة عليها سابقا، وتم ضمها لدولة جديدة بمقتضى اتفاقيات دولية.

وغالبا ما كانت الكثير من هذه المناطق، متميزة في لهجاتها وفي عاداتها وفي لغاتها، لكن باسم الوحدة السياسية فُرضت عليها مقومات مشتركة غطت أو تَنكرت لفروقاتها الثقافية، وجحدت المكتسبات اللغوية وحتى الروحية والمعتقدات لمختلف الشعوب أو الجماعات التي أصبحت (طوعا أو كرها) منتمية للدولة الجديدة، جمهورية كانت أو مملكة، تحت نظام "دولة- وطن Etat-nation" التي بدأت تناشد بشعار "الوطنية" وأصبحت تفرض على "مواطنيها" الجنسية (nationalité) بالرغم من تمايز خاصياتهم العرقية واللغوية والعادات والمعتقدات التي أصبحت مكبوحة بمختلف الأساليب.

المواطنة وخطر"الخاصيات الجهوية":

قصد ترسيخ مبدأ الدولة المنسجمة سياسيا والمبنية على الوحدة اللغوية والثقافية، ناهضت هذه الدول كل الميزات الجهوية باسم "وطن واحد وشعب واحد"(له لغة رسمية واحدة وتراب ذا حدود ثابتة وراية ومصير مشترك) الأمر الذي اكتسى وجها خاصا، بحيث كانت تمتاز هذه الفترة ب :

- سياسات التجاهل لثقافات الشعوب القاطنة منذ قرون في بعض أقاليمها شمالا أو جنوبا، ويُعتبر تراثهم الثقافي من "الخاصيات الجهوية " التي هي في طريق الاندثار. . .

- اتخاذ قرار استعمال لغة رسمية في الفضاء العمومي والإدارة والوثائق والتعليم بُغية تعميمها لتكوين جيل من المواطنين لهم وحدة سياسية في "دولة- وطن" واحدة،

- طمس ما يُعتبر " فروق جهوية " كما هو الشأن في بعض الجهات من **أوروبا** التي هي متكونة من جاليات لُقِبَت ب" أقليات لغوية" والمثال على ذلك، هو ما جاء في بعض الوثائق من الشهادات الخاصة باستعمال اللغة الوطنية: هذه السياسة التي ... "يطبق استعمالها بصفة صارمة على كل المواطنين ولو بعد موتهم. . . بحيث نلاحظ أن السلطات المحلية في عدة بلديات !! منعت الأهالي المنتمين الى أقليات وطنية أن يكتبوا على شاهد قبور موتاهم (pierre tombale) عبارات بلغتهم الأصلية " (. (Bled, J. P. 1989

من المنظور السياسي، الخطة المتبعة من طرف هذه الدول كان لها قصد مُتَعَمِد وواضح ؛فقد رَميت الى محو كل أصالة والقضاء على كل تراث، ومحو كل ما من شأنه المساس بتلك الوحدة التامة لدولتهم الموحدة المُتكونة من "مواطنين" لهم نمط وطني، فلا تَقبل الفروق ولا الخاصيات الجهوية لهذه الجماعات، إلى درجة أن لغاتهم أصبحت تعتبر "لهجات"، فقد كانت محظورة من التدريس والتعبير وكانت ثقافاتهم يُستَهان بها، وتُلقَب بأنها مجرد "فلكلور" سواء من خلال التظاهرات أو المواسم أو الحفلات أو اللباس او الإنتاج الفني؛ وحتى المناسبات الدينية عندما تكون مختلفة عن الدين السائد في الدولة، تُحتقر هي الأخرى، ودام نظام "الدولة- وطن" الى منتصف القرن الماضي بمختلف ميزاته السياسية : الدولة المركزية والمُسيرة لجميع الشؤون، والوطن الوحيد

المتجاهل للخاصيات الثقافية لبعض الجهات (كما سنفصله في بحث مقبل).

طبقت الدول الأوروبية نفس الخطة، أي كبح وقمع الثقافات، في مستعمراتها بإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، بحيث كان القهر الثقافي شديدا، حتى تتم عملية طمس مكوناتهم الثقافية، بطريقتين : تجهيلهم أولا ثم تدفعهم الى تَبني ثقافتها المُهَيمنة "السامية والراقية" وإدخالهم في دين المحتل، ثانيا.

على سبيل المثال في التعليم بالمستعمرات : يُدرّس في مادة التاريخ برنامج الوطن الأم ولا يُشار في الكتب المدرسية الى التاريخ الخاص بالجهة أو البلاد المُحتلة، بحيث التلميذ يُرتِل "كان أجدادنا (les gaulois) سكان "**لأقول**"(فرنسا حاليا la Gaule) يعيشون... كذا... وكذا... " سواءً كان التلميذ بالسنغال أو بمدغشقر، أو بالجزائر أو بالفتنام أو منطقة أخرى.

الاستيقاظ الثقافي وبزوغ "الهوية ":

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة **1945**م أصبحت أوربا منطقة من بين المناطق الأخرى مُنهارة عمرانيًا واقتصاديا، وعرفت تقهقر سياسي بسبب الهزيمة، والخراب، بينما كانت سابقا مركز العالم بجمهورياتها القوية: فرنسا، ألمانيا، انكلترا، إيطاليا... فحان الوقت لمناطق عديدة، التي كانت مكبوحة لتقوم بإبراز ثقافاتها الجهوية والحصول على اعتراف رسمي لوجودها كمكسب ثقافي يكتسي مشروعية ؛ لهذا بَزغت هذه المطالب الثقافية واللغوية والدينية على الواجهة، وأصبحت من بين انشغالات المنظمات العالمية الجديدة: منظمة يونسكو (Unesco) والجمعية العامة للأمم المتحدة (O. N. U**1945**.).

وخلال العشرية التي تلت الحرب العالمية الثانية تغيرت المعطيات بسبب التغيرات الجيو- سياسية والحضارية التي طرأت مثل :

- تأسيس الجمعية العامة اللأمم المتحدة التي سطرت مبادئ جديدة في التنظيم السياسي العالمي وفي النظر في الخلافات بين الدول، والمحافظة على السلم، وبدأت تناشد خاصة بحق تقرير مصير الشعوب وبإرساء الديمقراطية غداة التجربة الفتاكة والمؤلمة التى تسببت فيها الدكتاتوريات النازية والفاشية .

- وبداية تقهقر الاستعمار، بسبب قيام ثورات وطنية تكتسي صفات سياسية وفي نفس الوقت ثقافية ودينية واجتماعية، التي أصفرت على قيام دول جديدة التي حصلت على السيادة الوطنية. (الهند، اندونيسيا...).

- وأصبح للدول الجديدة حق في الانخراط في منظمة الأمم المتحدة، وفي اكتساب صوت والعضوية الكاملة، والتدخل في النقاش، وطرح القضايا والمشاكل الهامة على منصة الجمعية العامة للفصل فيها.

- قيام القُطبان المتضادين اللذان دخلا في "حرب باردة" (مبنية على خلافات إيديولوجية وعلى الرغبة الصريحة للهيمنة على العالم).

- والتطور التكنولوجي الذي طوّر وسائل الإعلام والاتصال، ومكّن من انتشار الثقافة، والإعلام، وبثِّ الأفكار التحررية عبر العديد من جهات المعمور حيث بدأت تُداع برامج ("هنا صوت... ") التي تنشر مطالب سياسية ودينية ولغوية الخاصة بقضايا تتعلق بمجموعات جهوية، كانت بالأمس مكبوتة،

الخ.وز قرارات المنظمة عالمية((Unesco, Onu) والتداخل والاحتكاك بين الثقافات... الخ .

كل هذه المعطيات الجديدة بدأت شيئا فشيئا تصقل المناخ الثقافي الجديد:

- ظهور أفكار تحررية ونشرها في مؤلفات غير أوروبية تناشد بمبادئ جديدة مثل حقوق الإنسان وبإحياء التراث الثقافي.

- قيام الحركات الوطنية التحررية عبر آسيا (الهند الصينية ضد فرنسا، واندونيسيا ضد هولندا، وفي الشرق الأوسط قيام دول وطنية عربية، وبشمال إفريقيا قيام حركات تحريرية، وطنية ضد فرنسا) بالإضافة إلى قرارات منظمة الأمم المتحدة والمواقف للمعسكرين ضد الاستعمار والإعلان بشعار تقرير المصير للشعوب المحتلة كمعطيات جديدة بدأت تؤثر على سياسات التصلب للدول الأوروبية الاستعمارية.

فبدأت تظهر أبحاث علمية جديدة و تُنظم مؤتمرات عالمية (تحت تحفيز اليونسكو) لتحليل بعض الظواهر الثقافية وقام المهتمون السوسيو- سياسيين بوضع مفاهيم جديدة في هذه الميادين، التي حظيّت باهتمام خاص من طرف العلوم الاجتماعية والعلوم السياسية، فبرزت

مصطلحات جديدة مثل: "التعدد الثقافي" و"التنوع الثقافي" و" الخصوصيات الثقافية الجهوية" ثم تدريجيا وخلال الستينات ظهر مفهوم جديد له ارتباط قوي بعلم النفس وعلم الاجتماع الأنثربولوجية والعلوم السياسية هو: "**الهوية الثقافية**" وكثرت الأبحاث الميدانية الجامعية المختلفة عبر عدة مناطق من العالم (خارج أوروبا) وأثارت نقاشا جامعيا حوله إلى يومنا.

ومن الملاحظ إن الدول "العظمى" التي كانت البارحة تعارض الثقافات وتفرض"حضارتها الراقية" أضحت، في الوقت الحالي، تَعترف بالخصوصيات الجهوية والمحلية الخاصة وبالأقليات التي لها هويتها الثقافية الخاصة بها (مثل المملكة البريطانية التي اعترفت بالخصوصيات الثقافية ل "سكوت لندا" و"إرلندا" - كذلك فرنسا بأقاليم مثل "بروطان" و"الألزاس" - وإسبانيا التي عانت من مقاومة من طرف إقليمي "الباسك" و"كطالونيا". . . الخ - واعترفت بخاصياتهما، ناهيك عن "بلجيكا" وفَضائَيْها الثقافتين : فلامان ووَلون (Flamands et Walons) والأمثلة متعددة عبر أمريكا (حق الهنود الحمر في إحياء ثقافتهم، وبجنوب أمريكا اللاتينية "الإنكا" الذين قضت عليهم إسبانيا في الماضي. . . الخ).

كما عرف مفهوم الهوية الثقافية تطورا كبيرا بسبب الشعوب أو المجتمعات التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الذي - كما لا يخف على أحد- كان يهدف إلى تحطيم أو محو ثقافات المناطق التي استحوذ عليها، والتي رغم ذلك، بقيت متشبثة بثقافاتها المتميزة (علانية رغم القمع الثقافي من السلطات أو بصفة مستترة) طيلة فترات طويلة من الزمن، ولهذا كانت مطالبهم تارة ثقافية، وتارة دينية، وأخيرا سياسية – وكثيرا ما لجئوا للقيام بحركات تحررية مسلحة، لاسترجاع سيادتهم، وثقافاتهم الأصيلة.

ومفهوم الهوية الوطنية حسب باحث عربي هي: "... مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يُعرفون و يتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى" (أحمد بن نعمان، **1996**: **21**) فالهوية الثقافية تصلح كأداة للتمييز وكذلك أداة للإدماج و الإقصاء.

الهوية الثقافية:

ان مصطلحي الهوية والثقافة متكاملتين، يطول الحديث لتناول كل لفظ على حدا، لكنهما عند اقترانهما يَدُلان على مفهوم واحد قائم في العلوم الاجتماعية كمصطلح كامل هو: "**الهوية الثقافية**".

إثر التغيرات السياسية والثقافية التي طرأت على الساحة الجيو-سياسية العالمية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، منها تحرر المستعمرات، ونشوب الحرب الباردة بين القطبين والتي غَيّرت خريطة مناطق النفوذ والتبعية لبعض الدول الاستعمارية، وبروز كتلة جديدة متكونة من دول "العالم الثالث" (دول عدم الانحياز) التي أصبحت تصبوا إلى النمو والتقدم، وقيام جمعيات عالمية تحث على حقوق الإنسان (جمعية الأمم المتحدة **1945**م) وبالنهوض بالتربية والثقافة (يونسكو**1945**م) والتي أصبحتا تضمان في صفوفها أعضاء جدد من الدول حديثة العهد بالاستقلال، والذين اتخذوها كمنبر عالمي لطرح على بساط النقاش مطالبهم السياسية (رفض الضغوطات السياسية والاقتصادية من المستعمر السابق) وخصوصياتهم الثقافية من لغة وطنية وتمدرس وصحة، وبرامج تنموية، وبالأخص طلب مراجعات الحدود الموروثة من فترة الاستعمار والتي لا تأخذ بعين الاعتبار المعطيات الإثنية أو الدينية أو الثقافية، أي كل ما يخص الهوية الثقافية الجماعية الراسخة في فضاءاتهم الثقافية منذ قرون والتي فككها المستعمر وقام بتشتيت الجماعات والقبائل وطمس ثقافاتهم الأصلية، وأكثر من ذلك، حرس على استعمال خصوصيات الهويات الثقافية واستغلالها كعنصر شقاق وتفرقة.

فعلى سبيل المثال نذكر ما وقع من حروب أهلية، فكثيرا ما قام المستعمر السابق بتحريض الجماعات ونشر الفتنة بينهم، مُستغلا فروقاتهم الإثنية، لأهدافه سياسية، حيث نشبت حروب جوارية بين دول سواء آسيوية مثل البنغلاداش وباكستان، الهند والكاشمير أو عدة دول بالشرق الأوسط وأقلياتهم "الكردية" أو بافريقية مثل البوروندي والرواندا، وبين إثنية الهوتو وإثنية التوتسيي. . .

الهوية الثقافية كمفهوم علمي قائم:

كثيرا ما أصبحت تتصدر واجهة الصحف مشكلة "**الهوية الثقافية**" خلال النصف الثاني من القرن الماضي، كما درسها الكثير من

الباحثين والمحللين السياسيين، وأصبح مصطلحا قائما يثير الجدل والنقاشات في الأوساط الجامعية (العلوم الاجتماعية بالأخص) وحظي بأبحاث وشروح مفصلة.

غرار على ما وقع من تحولات سياسية بأوروبا بين **1815**م و **1913**م والتي غَيّرت رسم خريطة الحدود لدول هذه القارة، بحيث ظهرت للوجود دول قائمة على الوطنية الواسعة ضمن "دولة- وطن" موحدة، لكنها تشمل عدة مناطق مُتَميّزة – وكثيرا ما كان هذا التقسيم سببا في قيام انتفاضات شعبية عبر أوروبا (**1830**م) وأسفر على "ربيع الشعوب " (**1848**م) فان أوضاع العالم غداة الحرب العالمية الثانية عرفت انتفاضات ومطالب أكثر وضوح في ما يخص أهدافها، منها السياسية (التخلص من الاحتلال واسترجاع السيادة) ومنها الثقافية، ونعني بها، الاعتراف بهوياتها الثقافية (الاعتراف بالسِمات الجهوية المبنية على اللغة والتراث الثقافي المشترك لجماعات كانت بالأمس ممزقة ومشتتة ومكبوتة) أو الدينية (بحيث ظهرت للوجود في بعض الجهات جاليات متدينة، طالما كانت محظورة) أو إثنية (التي عرفت تصفيات عرقية عبر التاريخ والتي أصبحت الآن تظهر للوجود ويُعتنى بوجودها وبتراثها، الذي محقه المحتل مثل ما وقع لجماعات "**الهنود الحمر**" بأمريكا أو بجاليات "**المايا**" و"**الأزتاك**" في أمريكا الجنوبية .

خاتمة :

يبدو من خلال النظر في مفهوم "الدولة- وطن" أنه يكتسي وجها متكاملا واضحا عندما يكون الوطن قائما قبل إرساء الدولة. فالسكان، في هذه الحالة، يكون لهم وعي كبير بهويتهم الوطنية ويشعرون بالرغبة الصريحة في إنشاء دولة تتمتع بتشريعات وتقوم بإدارة شؤونهم، مثل ما وقع في **ألمانيا** وفي **إيطاليا** خلال القرن **19**م، أما في حالة تواجد هويات عديدة عبر الجهات التي تُدمَج داخل "الدولة- وطن" فالأوضاع تبقى دائما غير ثابتة رغم القواسم المشتركة (جنسية واحدة، راية، لغة مفروضة، خدمة وطنية...) مما يؤدي إلى مطالب مزمنة تخِلّ بالاستقرار السياسي لهذا الكيان.

وأخيرا يشار، حاليا، من طرف المحللين السياسيين إلى أن مفهوم "الدولة- وطن" يُنتقد من طرف مؤيدي " الاتحادية الأوروبية " الذين

يعتبرون "الدولة- وطن" كبنية سياسية مصطنعة مستعملة لتبرير استمرارية "الدولة المركزية" عبر مختلف الدول الأوروبية (الجمهوريات) وبهذا فهي مرحلة يجب تجاوزها في التطور سياسي، والسير نحو"الوحدة الأوروبية" المنشودة من طرفهم، مما يأتي بطرح جديد لمشكلة الهويات بمختلف أبعادها (الهوية الثقافية، الهوية الوطنية...) في الوقت الذي بدأت تبرز فيه مفاهيم جديدة : تعدد الهويات، التنوع الثقافي، المجتمعات متعددة، كما سنراه.

المراجع:

- أحمد بن نعمان الهوية الوطنية الحقائق و المغالطات الجزائر، شركة دار الأمة، **1996**، بدون طبعة.

Ouvrages :

- Bled, J-P. : *François Joseph* , Fayard, Paris, 1987.
- Candau Joël : *« Mémoire et Identité »* P. U. F. Paris, 1998
- Caron, J-M ; Vernus, M. : *L'Europe au XIXème siècle. Des nations aux nationalismes, 1815-1914*, Armand Colin, coll. « U », Paris, 1996 .
- Carpentier,J. ; Lebrun,F. : *« Histoire de l'Europe »*, edit. Points-Histoire. Paris. 2002.
-Gellner, Ernest : *Nation et Nationalisme* , Payot, Paris . 1989
- Girault, R. : *Peuples et nations d'Europe au XIXème siècle*, Hachette, collection *« Carré Histoire »*, Paris , 1996
- Milza, Pierre. : *Histoire de l'Italie des origines à nos jours*, Fayard, Paris , 2005.
- Morin,Edgar. : *« Penser l'Europe »* Folio, Poche, Paris, 1990
- Schultz, Hagen : *Etat et nation dans l'histoire de l'Europe.* Edit. Seuil, Paris, 1998.
- Warnier Jean-Pierre : *« La mondialisation de la culture »* la découverte Paris 2003
- Encyclopedia Universalis : *Histoire de l'Europe ; réveil des nationalités ; Etat-Nation*
- Balibar Etienne : « *Identité culturelle, Identité nationale* » **in** Quaderni 1994 p 53-655.
- Delanty, G. 1996. Beyond the Nation-State: *National Identity and Citizenship in a Multicultural Society* - A Response to Rex, Sociological Research Online, vol. 1, no. 3
- Feller,-E. *Nationalités et nationalismes en Europe au 19°S.* **in** 'Ecole des Lettres I, n°9,1990-91
- Loriot, G. , *Pouvoir, idéologies et régimes politiques*, Laval, **in** Études Vivantes, 1992, p. 338
- Marti Pilar « *Identité et stratégies identitaires* » **in** *EMPAN* 2008/3 N° 71, p56-59
- Revue : les collections de l'Histoire *». L'Italie, 150 ans d'une nation*, janv. -mars 2011, Paris.
- Smelser, N. J. and Baltes, P. B. (eds.) 2001. *International Encyclopaedia of the Social and Behavioural Sciences.* Vol. 15. Elsevier. Oxford Science Ltd.
- Smelser, N. J. 1994. *Sociology.* **In** UNESCO. Blackwell. UK.